

نظرات

في حياتنا الاجتماعية

لحضرة صاحب السعادة حمد الباسل، باشا

سرفى ان أرى بحجة تعنى بالشئون الاجتماعية ، ناطقة بلسان الحاكم ومستمدة الرأى والفكرة من المحكوم ، فهى بين الجهتين صلة سهلة وسفير موفق محبوب .

وإذا كان لى أن أدلى بفكرة أو أبسط أمنية ، فان أول مايعيننى من مهام الوزارة الحديدية أن تكون وزارة تنسيق وتآليف بين المتسافرات من شئون الحياة القومية ومظاهرها فان التخالف بين هذه الشئون والمظاهر شائع حيثما حلت وأينما سرحت البصر .

يكاد المتنقل فى مدينة كالتاهرة يشعر بأنه ينتقل من مدينة إلى مدينة ، لا من حى إلى حى إذ التباين شديد بين الأحياء وبين أساليب المعيشة وبين أزياء الناس وأذواقهم .

فاذا كنت فى شارع الغورية أو ماشابهه رأيت الضيق والزحام واصطدام الأجسام بالأجسام واضطراب المسارة بين عربة تدفعها اليدان ، وأخرى يجرها بفل أو حصان ، وسيارة ركاب وأخرى لأحد الأعيان ، وثالثة تنقل المتاع والبضائع وتكاد بضجيجها وفداحة أفعالها تهدأ الأرض هذا وتلك المباني دكا، ومن الناس مشاة وحفاة ، ومنهم من يتنطى حمارا أو يدرج على دراجة ، وقد تمر بين أولئك جميعا قافلة من الجمال تحمل بطيخا أو أنواعا من الخضر توزعها على دكاكين الحى وبيوته ، وعرض الشارع مع كل هذا العناء وكل هذا الزحام لا يزيد على أربعة أمتار .

وإنك لتنظر إلى المتجر فلا تعرف ماذا فيه من البضاعة إلا إذا سألت صاحبه : هل هو للأقمشة أم للحرير ، أم لأدوات الزينة ، فان بين هذه البضائع تشابها ولبسا، وأهم ماتلاحظه على أى واحد من أولئك التجار أنه يعتمد فى تقديم مطالب المشترين على ذاكرته لا على تبويب أو تنظيم .

وعلى خطوات من هذا العالم المضطرب المشعث ترى عالما آخر مستقرا منظما ، ففى شارع فؤاد الأول وشارع المدابع وأمثالهما تجد السعة والأناقة ، فالمشاة على الأفاريز ، والركبان فى سؤءا

الطريق ، والمتاجر متمسمة أدق تقسيم بحيث تعرف وترى بعينيك ابن البضاعة التي تطلبها دون إرشاد ولا سؤال ، اذ بضائع كل قسم معروضة واضحة ، والعمال يدرك كل منهم عمله واختصاصه وأسعار ما في عهده من البضائع وليس معنى هذا أن أحياءنا الرافية أو الوسطى قد اكتمل فيها النظام حتى لا زيادة لمستريد ، ولا خلاف بينها وبين مثيلاتها في الممالك الكبرى ، بل إن وجوه النقص لم تزل كثيرة في نظام المرور على الأقل ، فإنك في كثير من عواصم العالم المتحضر ترى إفريزي الشارع الواحد قسمة عادلة بين الذاهبين والعائدين ، لا يلتقى غاد برائح ولا يتعب البوليس في إقحام الجمهور هذا الواجب بل الكل مشبعون بروح النظام .

وقد يقع هذا التقسيم في كل شارعين متوازيين كشارعي الموسكى والأزهر ، كلاهما يبدأ من ميدان الملكة فريدة وينتهى الى الأزهر ، فيخصص أحدهما للترام والآخر للسيارات العمومية والخصوصية ، ويقع هذا التقسيم بين الذاهبين والراجعين فلكل من الفريقين أحد الشارعين .

وندع هذا البحث الطويل الى غيره من مظاهر اضطراب الحياة القومية ، فهناك موضوع الأزياء وكثرتها ، ولعلنا أضخم الأمم رقما في عدد الأزياء . فلدينا " البدلة " والجبة والقنطان والجلباب أو " الجلابية " بالتعبير العامي (وأذكر أنى رأيت هذه الجلابية على كثير من الأجسام في بلغاريا ورومانيا وغيرها من ممالك أوروبا الجنوبية ولكنى أرجو ألا تتخذ هذه الممالك قدوة حسنة لأنها في الصف المتأخرين الدول الأوروبية ، ولدينا كذلك " السروال " وألبسة أخرى هي مزيج مضحك من كل تلك الأزياء .

ولدينا من أغطية الرأس : العمامة ، والطربوش ، والطاقي ، واللاسة ، واللبدة ، والعقال ، والطربوش المغربي المجرد من الشال وهو الذي يلبسه العرب ، ثم القبعة وما في حكمها كالكاكيت وغيرها .

ولست أذهب الى ما يراه الكثيرون من توحيد الأزياء ، فذلك مطلب عزيز المنال ، ولكنى أطمع في التقريب بينها قدر الإمكان : فأنواع العمام يجب توحيدها فلا تكون هناك العمامة البيضاء والحمر والخضراء اللهم إلا ما اصطلاح عليه رجال الدين كرى يعرفون به كالقسس والرهبان . أما أصحاب الطرق الصوفية فما أمهل رجوعهم الى العمامة البيضاء على أن تكون لهم شارات تميز بعضهم من بعض إن شاءوا أو إن كانت هناك ضرورة لهذا التمييز .

واللبدة والطربوش من فصيلة واحدة وتوحيدهما ممكن إذ لو وضعت اللبدة على قالب طربوش لصارت طربوشا ، ولنتسبها بعد ذلك بأى لون ، ولا أهمية لوضع الزر فيها أو إهماله . ومن الممكن تحسينها وإكسابها بعض النعومة لتكون أقرب ما يمكن الى الطربوش ، وقد نجعلها لباسا لعسكر البوليس والجيش وحقراء القرى فهي لا شك جميلة المظهر رخيصة الثمن .

أما الالسة ، والطاوية المجردة ، وعرى الرأس فكل أولئك يجب مكافئته والقضاء عليه .
والأمر هنا يسير إذا اهتم به أعيان البلاد وسادتها النابيون من الأهلين .
ذلك بعض ما تقع عليه العين من وجوه التنافر في المدينة المصرية .

أما القرية المصرية فالتنافر والفوضى فيها أوضح وأظهر وأوفر ، وعدوى الحضارة بطيئة السير حتى إلى القرى التي تجاور المدينة وتلاصقها كما ترى بين مدينة القاهرة وقرية المنيل التي تلاصق حيا من أعمار وأجمل أحياء العاصمة ، وكذلك في العزب القريبة من مصر الجديدة ومنشية الصدر وما إليها : هنا مدينة وحضارة ، تجاورهما فطرة وبدواة ، رغم التآخي والتلاصق والحوار .
وليس موضوعي الآن تعمير الريف المصري أو بحث مشكلاته الاقتصادية والزراعية فذلك موضوع طويل متشعب النواحي ، وإنما الذي أريده هو تقريب ريفنا إلى الحياة النظامية وتمتيع أهله بقدر من الرغد والرفاهية ، وليس هذا المطلوب باليسير ولا بالذي يحتاج إلى الملايين من الجنيهات ولا هو بالذي يقع على عاتق الحكومة وحدها ، بل السكان أنفسهم قادرون عليه ، إلى حد كبير .

إن المدينة الريفية في فرنسا هي من صنع الأهالي قبل أن تكون من صنع الحكومة ، فالقرية التي يقارب سكانها خمسة آلاف لا يمكن أن تخلو من مدرسة أو مدارس ، ومن صيدلية ومستوصف صغير ، ومن أطباء ومهندسين ومحامين هم في الغالب من أهل القرية نفسها ، ذلك أن الشاب هناك يعلم أن وظائف الحكومة ليست هي المجال الوحيد للعمل وللرزق ، ويعلم أن عليه لأهله وجيرانه واجبا اجتماعيا فهو يحصل العلم إلى نهايته ثم يعود إلى قريته ليقدمها بطلبه أو هندسته أو سواهما من ضروب العلم والثقافة .

ولا يخلو مثل هذه القرية من ميدان أو ميادين فسيحة يخططها وينظمها أهل القرية ويفرسون فيها الأشجار وينشئون لها المقاعد من خشب السنط أو من جريد النخل فتكون على بساطتها جميلة أنيقة ، ويزرعون في وسطها روضة أو رياضاً فيحاء تكون أحسن زهرة للمتنزهين والمتنزهات ، وكثيرا ما يخططون بأيديهم ملاعب للتنس أو لكرة القدم أو لسواها من الألعاب الرياضية التي تشترك فيها وتتفجع بها أجسام الأهلين رجالا ونساء وأطفالا .

وهناك مصراع للتمثيل ودور للسينما ثابتة أو طوافة ، وهناك قاعات لمحاضرات ، وحمامات للرجال ولل سيدات ، وغير ذلك من ضروب الترفيه عن الناس ، وكله أو جابه من عمل الأهالي دون أن ينتظروا الحكومة وقراراتها الإدارية أو اعتماداتها المالية .

وفي أكثر قرى اليونان يقم الريفيون أعمدة تذكارية ينتشون عليها أسماء من يموتون في الحرب من أهل القرية دفاعا عن الوطن ، أو من يأتون بأعمال جليلة لخدمة الإنسانية ، أو الذين رفعوا من قدر وطنهم بذكوتهم في علم أو فن أو اختراع جليل .

هذه مثل سامية يجب أن نجعلها نصب العيون، والدأب والدعوة المستمرة كفيلاً بتحقيقها.
وفي رأي أن عمدة القرية وخاصة أعيانها والناهين من أهلها قادرون على تحقيق هذه
المآرب لقريرتهم، بل هم أقدر عليها من المجالس القروية التي تكلفهم ضرائب ووظائف ومهمات،
ونفوس الناس أرحب لقبول وصاياهم ونصائحهم منها إزاء أوامر رجال الإدارة أو بلاغات
الحكومة ولوائحها، لا سيما إذا لاحظنا أن أكثر موظفينا في الأقاليم لا يمنون بتجيب
الأهالى فيهم ولا يعملون على إيجاد التآلف بين الحاكم والمحكوم، بل يحسبون الوظيفة تسليطاً
وسيادة وينسون أن أولئك المحكومين هم إخوتهم وعشيرتهم وأنهم مصدر القوة والإنتاج
والمال لهذا الوطن.

العمدة والأعيان كما قلت، هم أول من يجب أن يعمل على إيجاد القرية المنظمة الهائلة
الجميلة، وليس أعون لهم على هذا الغرض من طول الإقامة في قراهم، ومن إقامة المباني
الحديثة فيها بدلاً من أن يقيموها في المدن فتكلفتهم باهظ النفقات وتباعد بينهم وبين مواطنيهم،
وعليهم أن يكونوا هم المرشدين الأول والناصحين للريفين بتنظيم أنفسهم وترتيب بيوتهم جهدهم
الطاقة، وكسب شوارعهم والإنارة أمام بيوتهم هداية للآرة ومنعاً لسلطات اللصوص،
فاللص كما يقولون عدو النور. ولكن اقتراح الحكومة للرتب والنياشين متشياً مع مبلغ
ما يؤدي العمدة أو الوجهة لقريرته من خدمات.

ولتأيد هذه الجهود الشعبية بالجهود الحكومية الأخرى من تميم المستشفيات وإقامة
الحمامات، دون انتظار لأصوات شكوى تذبث من أفواه الفلاحين فإن فلاحنا قليل
الشكاية، مطبوع على الرضا بحاله مهما تبلغ من سوء.

ولتستن الحكومة في دعائها بكل الوسائل، من إذاعات بالراديو، إلى نشر في الصحف،
إلى وعظ في المساجد وغيرها، وللوعظ الديني أكبر الفضل في نشر أية دعوة خصوصاً
دعوة النظام والنظافة والتطهير، وأمام رجل الدين مجال فسيح للتأثير على الناس في هذا الباب
ما دام يستعين بالكتاب الكريم الذي يقول "وإياك فطهر" والذي يقول "إن الله يحب
التوايين ويحب المتطهرين" وبالحديث الشريف "النظافة من الإيمان" وبغير ذلك من
أوامر الله ونواهيه في كل باب، والدين إذا تغلغل في النفوس أكسبها رقة ورحمة وجداً عن
الشر وإقبالاً على صالح الأعمال.

لقد أئمت في هذا الحديث ببعض الخواطر لأضعها تحت نظر وزارة الشؤون الاجتماعية
التي قلت ولا أزال أقول إن أول ما يجب أن تعنى به هو التنسيق والتآليف بين المتنازعات
وأنى لأرجو لها سداد الخطى وبلوغ الآمال.